الفصل الأول
ظهور الخزر

لو ثبتت صحة الاشتقاقات اللغوية المعروفة لكلمة أو كلمتين مألوفتين في اللغات الأوربية لوجدنا أن كلمة «خزر» قد حظيت بانتشار أوسع مما يمكن أن يتبادر إلى الذهن، فكلمة bussard تبدو أصلاً أنها كانت تطلق على الفرسان الهنغار غير النظاميين[1]. وكما سنرى أن العلاقة بين الخزر والمجر Magyaro مؤسسو الدولة الهنغارية هي تاريخية مؤكدة، كما أن كلمة Katzer (هرطقي) الألمانية قد اشتقت من اسم «الخزر» على افتراض أنهم يهود.

ومن جهة أخري إن اشتقاق اسم ـ الخزر ـ ومعناه غامضاً تماماً، ويقال عادة: إنه مشتق من «جذر» الفعل التركي «قز» ويعني «يتجول» أو «يتبدى» وبهذا يكون «الخزر» هم «البداة»[2]، وقد يقبل هذا مؤقتاً.

---

(1) يعني كمصطلح عسكري، فقد كتب د. س. س. روسي من جامعة برمنغام بأن قاموس المجر Barczi قال: كلمة huszar مستعارة من الكلمة الصربية ـ كرواتية husar التي هي نفسها كلمة مؤخوذة من الكلمة الإغريقية chosarios، ويفترض أن هذه الكلمة هي كلمة Klosiariol نفسها التي قدمها رسكي بشكل مشكوك فيه أنها شكل من أشكال كلمة خزر (قسنطين بروفي، تحقيق بون: 2/ 675) وذلك بمعنى Latrones et sicarii وتظهر الكلمة بشكل ومعنى موحى به من قبل رسكي في Harmenopulos (قرن رابع عشر) I,Tit,4,9.

(2) كذلك زاجاتشوسكي «مشكلة» ونقل عن: Gombocz Nemeth Rasonyi وثانية في دراساته ومقالاته ولم يتوقف زكي وليدي عند بعض التحديات وتجاوزها في (ابن فضلان 225) واقترح برتساك في عرضه للدراسات (در ـ اسلام: 29/ 101) بدائل في أن قزر هي (خزر) واعداً بتقديم تحليل لغوي.

هذا ونجد في اللغات السلافية عدة أشكال لكلمة خزر، فيها حرف (O) الصوتي في الشطر الأول من الكلمة Khozar، ويقودنا هذا إلى اشتقاقات أخرى من كلمة koza الروسية ومعناها «ذيل الخنزير» Weltmanu 1868 ومن جذر كلمة Koz في العديد من الكلمات السلافية ومعناها «الماعز» Tzenoff 1935، ومن الممكن تجاوز هذه المحاولات والتخلي عنها، طالما أن الاسم الأصلي ليس سلافياً.

ثم ليس هناك من داع ولو كان بسيطاً للافتراض أن الخزر كانوا يرتدون «أذناب الخنازير» أو كانوا رعاة للماعز، ومن الجدير بالذكر ان هذا الاسم يكتب باللغة العبرية بشكل عام مع حرف o-u الصوتي ويلفظ «كوزاري» kuzari (ومنه جاءت كلمة Cozri التي استخدمها Buxtrof وجمعها كوزاريم Kozarim. ومن جهة أخرى نجد في العربية كلمة «خزر» لا يمكن أن تكون مشتقة من «أخزر» التي تعني «ضيق العين» أو «ذي العين المائلة» (الحولاء)[1]، ونجد في الإغريقية «خزاروي» Khazaroi (Khazareis) وأحياناً خوتزير Khotzer(Khotzir) وفي اللاتينية تشازاري Chazari وغازاري Gazari وفي الوثيقة العبرية المعروفة باسم «مراسلات الخزر» هنالك عبارة غير مضبوطة بالشكل يمكن أن تلفظ «كزر» أو «خزر».

وكما قيل من قبل من الممكن قبول التفسير الذي يقول بأن كلمة خزر تعني «البداة» ومع ذلك أشار بيلليوت Pelliot إلى الصعوبات المشمولة هنا ضمناً[2] (الفعل التركي قزماك Qazmak يستعمل دوماً بمعنى يجوف وليس يتجول إلخ) وهو يشير هنا إلى ج ـ دني J. Deny[3]، وهو أن اسم خزر يمكن أن يفسر بعبارات: Quzar . Quz-ar .Quz-er أو Qozar المشتقة من الجذر Quz ومعناه طرف الجبل المواجه لجهة الشمال، وإذا زدنا عليه «eri» أو «er» يصبح المعنى شعب الشمال.

وإذا ما رجحنا رأي داني يمكننا القول:

---

(1) اقتباس زاجاتشوسكي، المصدر نفسه.

(2) مقال خاص عن الخزر في Nomstures: 207 ـ 224.

(3) مل. اميل بويساق في دورية معهد الفلسفة والتاريخ: 5 (1937) بروكسل 295 ـ 312.

(أ) أنه لم يقدم حتى الآن تفسيراً مقنعاً لحرفي (o-u) الصوتيين في بعض أشكال ذلك الاسم.

(ب) نجد لغة أرمينيا القديمة ولغة جورجيا غالباً ما يشار إلى خاقان الخزر باسم ملك الشمال و«خزاريا» باسم «بلاد الشمال» الأمر الذي رده إلى معنى الاسم الأصلي، لكن قبول التفسير يثير عدة مصاعب، لأننا نجد فيما يعرف باسم وثيقة كمبردج المكتوبة بالعبرية والتي هي جزء من «مراسلات الخزر» عبارة Kazar (Kazari) كتبت بما يقرأ قزر Qazar ومن الصعب القول Quzar.

وأول سؤال يواجهنا هنا هو: متى ظهر الخزر، ومتى ظهر اسمهم؟ لقد كان هناك كمية من المناقشات وعدد من الآراء حول علاقة الخزر بقبائل الهون Huns من جهة وبالأتراك الغربيين من جهة أخرى، وكان الرأي السائد لبعض الوقت هو أن الخزر قد صدروا عن الامبراطورية التركية الغربية، وتظهر الاشارات المبكرة إلى الخزر في الوقت الذي لم يعد فيه ذكر للأتراك الغربيين وعلى هذا الأساس قيل أنهم انضمّوا بقواتهم إلى الامبراطور البيزنطي هرقل في حربه ضد الفرس سنة 627م، وأنهم ساعدوه فعلياً أثناء حصاره لمدينة تفليس.

والسؤال هنا: هل كان الخزر يخضعون آنذاك لسلطة الأتراك الغربيين؟ وقد قام المؤرخ ثيوفانس، الذي روى هذه الأخبار (ت 818م) بالحديث عنهم على أنهم «أتراك قدموا الشرق يدعون باسم الخزر»[1]، هذا من جهة ومن جهة أخرى يظهر الأتراك الغربيين في الكتابات الإغريقية تحت اسم «أتراك» بشكل مجرد. دون إضافة أية سمة خاصة.

وقد أتى المؤرخون السريان على ذكر الخزر وربطوهم بأحداث تاريخها أبكر من عام 627م، فقد قام كل من ميخائيل السوري[2] وابن العبري[3] بالحديث عن إخوة ثلاثة قاموا كما يبدو في عهد الامبراطور البيزنطي موريس (582 ـ 602م) بالزحف من «سيزيا

(1) طبعة بون: 85.

(2) تحقيق شابوت: 381. فصل 1 سطر 9.

(3) تحقيق بدج. الكتاب 32 الفصل 1 السطر 15.

الداخلية» Inner seyhhia باتجاه الغرب مع جيش قوامه ثلاثون ألف رجل، وعندما وصلوا إلى حدود الامبراطورية البيزنطية عبر واحد منهم واسمه بلغاريوس (عند ابن العبري بلغاريس) نهر الدون، واستقر في داخل الامبراطورية، وأما الآخران فقد احتلا بلاد اللان التي تدعى باسم «برساليا Barsalia» وأن هؤلاء السكان الأصليين تبنوا اسم «الخزر» نسبة إلى «كزريغ» أكبر الأخوين سناً. وإذا صحت نسبة هذه الرواية ـ كما هو مرجح، إلى يحيى العربسوسي[1] John of Ephesus (توفي حوالي 586م)، فالمعاصرة إذاً موجودة، وتشير صراحة إلى أن الخزر قدموا إلى بلاد القوقاز من آسية الوسطى في حوالي منتصف القرن السادس م.

ونجد عند الكاتب الإغريقي ثيوفيلاكت سيموكتا Theophglact Simocatta (ت حوالي 620م) رواية حول الأحداث التي جرت بين الأتراك الغربيين من الصعب ألا تكون ذات صلة بالرواية السريانية التي أتينا على ذكرها الآن[2]، فقد تحدث عن سفارة تركية قدمت إلى الامبراطور موريس 598م، وتحدث بالمناسبة واصفاً كيف أن الترك قد تمكنوا في السنين الماضية من إيقاع الهزيمة بالهون البيض (الهياطلة) والتغلب على الأفار والإيغور الذين يعيشون حول نهر إتل الذي يدعوه الأتراك باسم النهر الأسود[3].

ويذهب ثيوفيلاكت إلى أن هؤلاء الإيغور ينحدرون من زعيمين دعيا «فار» و «هوني» وأنهم يشار إليهم في الأماكن الأخرى باسم فارشونايت[4] Varchonites، وقد هرب بعض هؤلاء الإيغور خوفاً من الأتراك، وعندما ظهروا في الغرب عدهم أولئك الذين قابلوهم بمثابة «أفار» وقد لصق بهم هذا الاسم، وباتوا يدعون به بشكل اعتيادي.

---

(1) كذلك بارثولد، الموسوعة الإسلامية، مادة «بلغار». وهذا ونشر الموجود من تاريخ يحيى تحت اسم «تاريخ الكنيسة» ليوحنا الآسيوي ـ القاهرة 2000.

(2) طبعة بون 282. . . . شافانس، الوثائق: 246. . . . .

(3) غير محدد، ويبدو أن تل مثل أتل إتل الاسم الذي أطلق على نهر «أتل» أي نهر الفولغا، وينكر زيوس في (Die Deutschen 713 n) أن يكون الفولغا هو المقصود، ويقترح مرقورات ويوافقه شافانس (وثائق: 251) أن «تولا» دافعي جزية لأورخون الذي وجد نائباً كما يبدو في الشرق.

(4) ماندر بروتكتور، تحقيق بون: 400.

ويؤكد مصنف إغريقي آخر هذا الرواية، فهو يذكر أن جستنيان قد استقبل بعثة تمثل الأفار الأدعياء، الذين كانوا كما يبدو من الإيغور، وذلك في عام 558م[1]، وانهم تحولوا بعد هذا إلى النهب والعيث في أراضي شرقي أوروبة ووسطها. وإذا صح الاشتقاق، فإن كلمة «أوغري» Ogre (الغول) في التقاليد الشعبية يعود تاريخها إلى هذه الحقبة.

ويخبرنا ثيوفيلاكت أيضاً أنه في حوالي التاريخ الذي جرت فيه وقائع السفارة التركية في 598م. كانت هناك هجرة لبعض النازحين من آسية إلى أوروبة، شملت قبائل: تارنياخ Tarniakh وكوتزاغير Kotzagero وزبندر Zabender، وشابه وصول هؤلاء وصول أبناء الفار والهوني، من قبلهم، وقد أثبتوا قرابتهم بهم بالتحاقهم بالذين عرفوا تجاوزا باسم «الأفار»، والذين هم في الحقيقة كانوا من الإيغور خاضعين لخاقانهم (الإيغور). وليس من الصعب ملاحظة أن هذه رواية أخرى مشابهة للرواية التي أتى على ذكرها كل من ميخائيل السوري، وابن العبري، ذلك أن ال«كوتزاغير» كانوا بلا شك جماعة بلغارية[2]، بينما ينبغي أن يكون اسم «زبندر» هو اسم «سمندر» نفسه التي كانت مدينة خزرية هامة ومن ثم فهي تماثل «كزريغ» السريانية، حيث يبدو من حيث الأصل أن اسم «سمندر» قد اشتق من اسم القبيلة المحتلة[3].

وهكذا يتبين لنا بشكل مؤكد أن الخزر قد وصلوا إلى أوروبة الشرقية أثناء عهد حكم الامبرطور البيزنطي موريس، وبعد أن كانوا قد احتكوا من قبل بالأتراك الغربيين، وقد قدر لهم أن يحتكوا بهم ثانية فيما بعد.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن وجهة النظر القديمة تقول إن الخزر قد وصلوا إلى تخوم أوروبة قبل قيام الأتراك (حوالي سنة 550م)، وتبعاً لهذه النظرية فإن صلات نسب الخزر تنحصر بالهون، فعندما تحدث برسكوس Priscus، سفير أتيلا في عام 448م عن الشعوب الخاضعة للهون، من الذين يعيشون في «سيزيا تجاه بحر بنطس» ذكر

---

(1) مناندر، المصدر نفسه: 282.

(2) مرقوارت Streifzuge, 488.

(3) ومثل ذلك كما يبدو بلدة بلنجر التي كانت بلدة خزرية هامة أخذت اسمها من الجماعة التي سكنتها، أنظر ما يلي.

أنه كان بينهم شعب عرف باسم ال«أكتزير[1]» وتعني هذه العبارة بكل بساطة الـ«أق ـ خزر» أي الخزر البيض، وقام جوردانس Jordanes الذي كتب في حوالي 552م بالإشارة إلى الـ«أكتزير» على أنها أمة محاربة لا تمارس الزراعة بل تعتمد في معيشتها على رعي القطعان والصيد[2].

وانطلاقاً من قاعدة التمييز المطبقة بين الأتراك، فانهم كانوا يطلقون اسم البيض على العشائر المتفوقة المتميزة بين الوحدات القبلية، ويطلقون اسم السود على البقية.

ونقرأ عند الجغرافي العربي الاصطخري أن الخزر نوعان: نوع يدعى قرا ـ خزر (الخزر السود) والنوع الأبيض الآخر، لا يسميه الاصطخري[3]، لكن من الطبيعي أن نفترض انهم الأق ـ خزر (الخزر البيض). ويلاحظ أن عملية مطابقة الـ «أكتزير» مع الـ «أق ـ خزر» لم يقبل به زيوس[4] Zeuss ولا مرقوارت[5]، لكونها مطابقة مستحيلة لغوياً. وزاد مرقوارت على ذلك قوله إنه من وجهة نظر تاريخية نجد أن الـ «اكتزير» عرق محكوم خاضع لسواه، متطابق ـ بشكل مرجح ـ مع الخزر السود، لذلك إن عملية المطابقة البديلة هي أن الـ «أكتزير» معناها الأغشيري Agacherie، لكن حتى في هذه الحالة ليس هنالك من فرق إذا ما قدرنا أن زكي وليدي محق في الافتراض أن العلاقة بين الأغشيري والخزر كانت علاقة وثيقة[6].

وهنالك حقيقة أو حقيقتان تؤيدان وجهة النظر القديمة التي لم تدحض كلياً، فلو لم يكن للخزر أية علاقة مع الـ «أكتزير» على أساس انهم قد ظهروا لأول مرة كفرع من فروع الأتراك الغربيين في نهاية القرن السادس م، إذا كيف جاز أن يذكروا في النصوص والوثائق السريانية المصنفة في حوالي سنة 569[7] تحت اسم «زخويس ريتور»؟ كما أن الشكل

---

(1) برسكوس، تحقيق بون: 197.

(2) تحقيق موسن: 63.

(3) ترجمت رواية الاصطخري عن الخزر في الفصل الخامس.

(4) Die Deutschen, 714 - 715.

(5) streifzuge, 41, n. 2.

(6) ابن فضلان: 31.

(7) روبن دوفال، اقتباس شافانس، الوثائق: 250 رقم 4.

كزر/ كزير الذي يأتي هنا في قائمة أسماء الشعوب التي تنتمي إلى المناطق المجاورة للقوقاز، يشير إشارة واضحة للخزر، ويتفق هذا الأمر وينسجم مع حقيقة وجودهم في المنطقة نفسها قبل قرن من ذلك التاريخ، هذا ولدينا شهادة شاهد آخر يعرف باسم جغرافي رافنا (القرن السابع؟) يقول إن الأغرزيري (الأكتزيري) لدى جورادنس هم الخزر أنفسهم[1].

ومهما يكن من أمر، ليس من الثابت في أي مكان أن الخزر هم الهون، والسؤال الذي يواجهنا الآن هو: ما دام الخزر كانوا قد أخضعوا من قبل الهون قبيل عام 448م بوقت قصير، وذلك وفق رواية برسكوس، فمنذ متى يا ترى كانوا موجودين من قبل؟ هنا يتحتم علينا أن نأخذ بوجهة نظر زكي وليدي، وهي وجهة نظر أقامها صاحبها اعتماداً على المصادر الشرقية حصراً، وهي مستقلة عن جميع التقديرات المذكورة آنفاً.

ويعتقد وليدي أنه عثر على ما يشير إلى أن الورغشيتي Urgeschichte أتراك، ليس في المصادر الإسلامية فحسب، بل في المصادر الصينية أيضاً، وترجع هذه المصادر الصينية إلى أسرة واي Wei (366 ـ 558م)[2]. ففي روايته هذه يقوم الخزر بدور رائد، حتى أنهم يدعون أنهم أهل البلاد الأصليين[3].

وينقل زكي وليدي رواية ذكرها الكرديزي فيها أن الجد الذي ينتسب إليه القرغيز Kirgiz أقدم على قتل واحد من ضباط الرومان ثم هرب إلى بلاط خاقان الخزر، ثم استأنف رحلته شرقاً حتى استقر أخيراً بشكل دائم على ضفاف نهر ينيسي Yenissei، ولكن بما أنه من المعتقد أن الكرغيز قد عاشوا في شرقي أوروبا في الأزمنة المبكرة واستقروا في جنوبي جبال أورال قبل بداية العصر المسيحي، فإننا نجد زكي وليدي يعين تاريخاً لهذه الرواية مطابقاً لهذا التاريخ، وهو على غير استعداد لأن يقبل بأن ورود ذكر الخزر في تاريخ مبكر مثل هذا التاريخ هو من الأخطاء التاريخية[4]. ولاشك أن هذه دعاوى عريضة

---

(1) تحقيق بندر وبارثي: 168.

(2) المعنى «وي» الأخيرة (التاريخ من عند زكي وليدي).

(3) ابن فضلان: 294. اعتماداً على المصدر نفسه أيضاً ديار الخزر بالأصل في حوض جيحون الأدنى. انظر المصدر نفسه: 244، 366.

(4) المصدر نفسه: 328.

بالنسبة لقدم تاريخ الخزر، فالمصادر الإسلامية الأساسية التي يعتمد عليها زكي وليدي هي مصادر متأخرة إلى حد ما، فالكرديزي توفى حوالي سنة 1050م، والتاريخ المجهول للمؤلف المعروف باسم «مجمل التواريخ والقصص»[1] جاء بعده (مع أن هذه التواريخ ترجع بدون شك إلى ابن المقفع، وهو من رجال القرن الثامن، استقى معلوماته من مصادر فارسية تعود إلى ما قبل الإسلام) كما أن مصادره الصينية لا تأتي على ذكر الخزر بشكل واضح، ومع هذا فإن وجهة النظر القائلة بأن وجود الخزر قد تقدم على وجود الهون لها ما يؤكدها، لكن من جهات أخرى:

ويحتوي التاريخ الأرمني الذي يحمل مؤلفه اسم موسي كوريني Moses chorene (القرن الخامس) على رواية تشير إلى الخزر، في حوادث وقعت في العشرين سنة فيما بين 197 و217م[2]. وتقول هذه الرواية بأن شعبين من شعوب الشمال وهما: الخزري والباسيليان Basiliane قررا بعد اتفاقهما على اقتحام ممر كور Chor في الطرف الشرقي من بلاد القوقاز، وذلك «تحت لواء مقدمهما وملكهما فيناسب سرهاب»[3] Venasep Surhap، وبعدما عبرا نهر كور Kur التقيا بفالارش الأرمني، وكان على رأس جيش عظيم، وقد تمكن من طردهما عائدين إلى الشمال وذلك بعدما دبت الفوضى في صفوفهما. وبعد أمد من الزمن تعرض هؤلاء الشماليون وهم في موطنهم في القوقاز إلى هزيمة منكرة، وقد قتل فالارش في المعركة الثانية هذه، وخلفه ابنه وقام الأرمن ثانية تحت قيادة ملكهم الجديد باجتياز القوقاز وذلك في قوة عظيمة، وهزم الأرمن الخزري

---

(1) المصدر نفسه: 311.

(2) التأريخ بالنص مضطرب يفيد بالتاريخين كليهما وبثالث متداخل بينهما. الموسوعة البريطانية (ط. 14) هناك التاريخ هو 198. لابد أن كارمولي في (رحلات القديسين، بروكسل 1847) يشير إلى الحادث نفسه عندما كان يتحدث عن جولوف الخزري الذي حكم سبع عشرة أمة على الفولغا، وكان يلاحق بعض القبائل الثائرة، عندما اندفع إلى أرمينيا فيما بين 178 و198. إن مصدر معلومات كارمولي غير معروف بالنسبة لي.

(3) يعتقد كوتسشيرا في ترجمة وستون للقرن الثامن عشر: 2/ 62 (65) «Sub duce acrege eorcem vena sepo snrhaco» أنه عنى ملكاً الخزر.
Diechasaren، فينا: 191: 38.

والباسيليان هزيمة كاملة وأخضعاهما لحكمهم وأخذوا واحداً من كل مئة بمثابة رهينة، وجرى بناء نصب تذكاري كتب عليه بحروف إغريقية ما يحكي أن هاتين الأمتين قد أصبحتا تحت السيادة الرومانية.

وتبدو هذه الرواية أنها صحيحة، ويفهم منها أن الخزري هم الخزر أنفسهم ومهما يكن من أمر فإن التاريخ الأرمني منسوب خطأ إلى موسي كوريني من القرن الخامس، وينبغي تصحيح ذلك لأنه يعود إلى القرن التاسع أو على أبعد الحدود إلى القرن الثامن[1]، وهذا لاشك يلقي ظلاً مختلفاً على رواية الغزو الخزري، فبدلاً من أن تكون الرواية شاهداً لا يشك بصحته على وجود الخزر أيام موسي كوريني نراها تتوافق مع الروايات الأرمنية (والجورجية أيضاً)[2] التي تشير إلى الخزر في القرون الأولى للميلاد أو حتى قبل الميلاد، ولا نرى لزوماً لنقلها هنا، لأن هذه الروايات وإن كانت ممتعة في حد ذاتها، لكن بالنظر إلى غموضها وعدم دقتها وافتقارها للتأكيد لا يمكن الأخذ بها على أساس أنها مادة تاريخية معتمدة.

ويزودنا الكتّاب المسلمون بكمية لابأس بها من المواد الإخبارية التي يمكن أن تلقي الضوء على تاريخ ظهور الخزر، فكما سلف وذكرنا نجد أن بعض هذه الأخبار مستقاة من مصادر فهلوية جرى تصنيفها قبل قيام الإسلام، وقبل الفتح العربي لبلاد فارس، هذا وإن ما قاله الكتاب العرب والفرس عن الخزر يستحق التمحيص بدقة على أساس أنه يحتوي على معلومات موثوقة ترقى إلى العصور السالفة.

ولا عجب أن نرى أن هذه الروايات التي كتبت أثناء ازدهار دولة الخزر في شمالي القوقاز تميز هؤلاء الخزر عن الأتراك الذين حاربتهم الأجيال المسلمة الأولى في آسية الوسطى، لكن وجود فقرة ـ كالتي سنوردها فيما يلي ـ فيها وضع الخزر جنباً إلى جنب مع الشعوب العظيمة آنذاك، هو أمر يستحق النظر.

---

(1) من أجل وجهة نظر شاملة حول موسي الكيروني، انظر مقال أ. و. سركسين المجلة الآسيوية: 60 (1940) 73 - 81. (ترجم كتاب كوريني إلى العربية ترجمة لابأس بها، فيها عيب بالنسبة لضبط الأسماء).

(2) مثال وفضلاً عن الروايات الجورجية في بروست «النقوش الجورجية» إلخ. م. ر. أ (1840): 329.

ففي مناظرة جرت بين ابن المقفع الواسع الشهرة وأصدقائه، كان الموضوع المثار هو تحديد أي الأمم أعقل، وإنه لأمر له مغزاه مسألة ترتيب الخزر في تلك المناظرة، فقد جاء ترتيبهم بعد الفرس والإغريق (الروم) وأهل الصين والهنود، ولا ندري أمردّ هذا إلى حالتهم الثقافية المتدنية آنذاك، أم إلى نظرة العرب إلى الموضوع؟ (توفى ابن المقفع عام 142هـ/ 759م).

فقد عدّ ابن المقفع السود (الزنوج) أقل خلق الله شأناً، ووضع الترك والخزر بعدهم، وليس هذا هو المهم، بل أنه شهد لهم بخصائص مختلفة تماماً عن السودان حيث قال: «الترك كلاب مختلة والخزر بقر سائحة»[1] وعلى الرغم من أن هذا الحكم ليس في مصلحة أي من الطرفين، إلا أنه يوحي لنا أن الخزر كانوا مجموعة عرقية (أمة) متميزة لا بل حتى خامة، إنما إلى أي مدى يتماشى هذا الوصف مع الحقيقة ليس لدينا ما يؤكد ذلك، هذا ولدينا بعض الآراء التي تذكر أن الخزر لهم علاقة بالشركس على أساس أن بشرتهم باهتة اللون وشعورهم قاتمة وعيونهم زرق.

وعندما ننظر إلى البرساليين أو الباسليين الذين ورد ذكرهم من قبل السيزيين الملكيين لدى هيرودوت[2] نجد أن الأمر يحتاج إلى تأمل وإنعام نظر كبيرين، ويختلف الحال بالنسبة للروايات التي تصف الخزر السود، على أنهم سمر البشرة كالهنود مع جمال ورشاقة في أجسامهم[3].

هذا وإن الوصف الوحيد المتوفر لدينا لهذا العرق مما جاء في المصادر العربية الوصف التالي المنقول كما يبدو عن ابن سعيد المغربي في قوله: «أما بالنسبة للخزر فهم يسكنون إلى يسار (شمال) المسكونة تجاه الإقليم السابع، يتألق فوق رؤوسهم برج الدب الأكبر، وأرضهم باردة رطبة، ولذلك فإن بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء، وشعورهم حمراء

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد. ط1331 هـ: 2/ 210. وجرى التعليق على الحكايات من قبل روزنتال في بحثه «طرائق ومذاهب البحث العلمي الإسلامي» في الحوليات الشرقية: 24 (1947)/ 72.

(2) 4/ 59.

(3) انظر رواية الاصطخري عن الخزر في الفصل الخامس.

مسترسلة، وأجسامهم كبيرة، وطبيعتهم باردة، ومنظرهم على العموم وحشي»[1]، وواضح أن هذا الوصف وصف مألوف لأمة من الأمم الشمالية، وهو لا يقدم لنا أي مساندة للرأي القائل بوجود بعض وشائج النسب بينهم وبين الشركس.

وإذا ما اعتمدنا على عملية الاشتقاق اللغوي التي يقدمها لنا الخليل بن أحمد[2] فإننا نجد أن الخزر كانوا كالمغول عيونهم مائلة إلخ... ومن الجلي أنه ليس هناك رأي قطعي بالنسبة لهذه المسألة، إذ يبدو أن بعض الخزر كانوا شقر البشرة، وشعورهم قاتمة اللون، وعيونهم زرقاء، ولكن ليس هنالك من دليل على أن هذه الصفات كانت صفات غالبة منذ الأزمنة القديمة، أو أنها كانت تمثل بشكل عريض سكان بلاد الخزر في العصور التاريخية.

وهنالك مناظرة مشابهة حول فضائل الأمم المختلفة نقلت إلينا من حقبة تقدمت على عصر النبي محمد ﷺ يتحدث فيها ملك الحيرة النعمان بن المنذر مع كسرى أنوشروان، وقد أعلن الملك الفارسي بأنه يرى أن الإغريق والهنود والصينيين أرقى من العرب، وكذلك الترك والخزر، على الرغم من انخفاض مستواهم المعاشي ووضاعته، ذلك أن الخزر والترك لديهم على الأقل منظمات ومؤسسات خاضعة لملوكهم.

ونلاحظ هذه ثانية أن الخزر قد جرى تصنيفهم جنباً إلى جنب مع الأمم الشرقية العظمى[3]، ويتوافق هذا الرأي مع الروايات التي تحدثت أن سفراء: الصين، والترك، والخزر، كانوا يتقاطرون دوماً على أبواب كسرى[4] أنوشروان إلى حد أنه كان يحتفظ في

---

(1) مخطوطة البودليان: 1/ 874 ورقة: 71. أشكر لحصولي عليها الأستاذ كاهل.
ولم أستطع أثناء الترجمة الوقوف على مخطوطة البودليان، لكن لدى العودة إلى كتاب الجغرافيا لابن سعيد ط بيروت 1970، وجدت أنه قال في ص196: «مدينة خزرية، وهي منسوبة إلى الذين أفناهم الروس، وقد يسمى هذا البحر [بحر سينوب] ببحر الخزر نسبة لها، وهي من حيث الطول إحدى وسبعون درجة، والعرض خمس وأربعون درجة وثلاثون دقيقة، وهي على نهر ينصب في البحر من جهة شماليها».

(2) ياقوت، معجم البلدان: مادة خزر.

(3) ابن عبد ربه: 1/ 166.

(4) الطبري: 1/ 899. وتبعاً لابن خرداذبه كان الأشخاص الذين يرغبون بزيارة البلاط الفارسي من بلاد الخزر واللان يحتجزون في باب الأبواب (المكتبة الجغرافية العربية: 4/ 135).

قصره على ثلاثة عروش ذهبية دائمة لا يجلس عليها أحد، لأنها كانت مخصصة لكل من ملوك الروم (بيزنطة)، والصين، والخزر[1].

وعلى العموم نجد أن المواد المستقاة من الكتّاب العرب والفرس بخصوص تاريخ الخزر في العصور القديمة تنحصر بثلاث مجموعات تقريباً، وهي تتمحور حول ثلاثة أسماء هي:

(أ) واحد أو آخر من رسل بني إسرائيل.

(ب) الاسكندر الكبير.

(ج) بعض الملوك الساسانين وخاصة أنو شروان وخلفاؤه المباشرون.

ويقدم لنا اليعقوبي في تاريخه[2] نموذجاً شائعاً من الروايات يمثل الفئة الأولى قال فيها إنه بعدما اختلطت الألسنة في بابل، اجتمع أبناء نوح إلى فالغ بن عابر، وسألوه أن يقسم الأرض بينهم، فقسم لهم، فصار للولد يافث بن نوح: الصين والهند والسند، والترك والخزر، والتبت، والبلغر (الفولغا) والديلم وما إلى أرض خراسان، ويقدم اليعقوبي في مكان آخر من كتابه تتمة لهذا الخبر جاء فيه أنه بعدما قسم فالغ بن عابر الأرض على هذه الشاكلة، توجه ولد عامور بن نوبل بن يافث سمت الشمال الشرقي، وتوغلت جماعة منهم من ولد تاغوما نحو الشمال، وتوزعوا في عدة بلدان، وشكلوا عدة ممالك كان منها مملكة البرجان، (البلغر) واللان، والخزر، والأرمن[3].

ويشابه هذا ما ذكره الطبري[4] من أنه ولد ليافث عدة أولاد كان منهم جامر (في الكتاب المقدس جومر) وموعج (الأصح موّغ أو مغوغ) وموادي (مداي) ويوان (جافان) وثوبال (توبل) وماشج (الأصح ماشخ أو مبشخ) وتيرش (ترس)[5]، وكان من ولد تيرش: الترك والخزر، ويبدو هنا تشابه ممكن في الأسماء بينهم وبين التُرغش، وهم بقايا

---

(1) ابن البلخي. فارس نامة (سلسلة ذكرى جب): 97.

(2) تحقيق هوتسما: 1/ 17.

(3) المصدر نفسه: 1/ 203. مرقوارت: 491.

(4) 1/ 217 ـ 218.

(5) ch. Gen 10.2.

الترك الغربيين الذين هزمهم العرب عام 119هـ/ 737م[1]، حيث اختفى أثرهم كفئة حاكمة في ذلك القرن.

ويتبع الطبري روايته فيقول: «ومن ولد موعج: يأجوج ومأجوج، وهم في شرق أرض الترك والخزر»، ولاشك أن هذه المعلومات تلقي ظلاً ثقيلاً على محاولة زكي وليدي في مطابقة «يأجوج ومأجوج» الوارد ذكرهم لدى الكتاب العرب مع النروجيين[2] وتبطلها، فهو قد ذهب إلى أن ماشخ ربما مفرد للكلمة الكلاسيكية «مسغيتاي» (مسغيت)[3] Massagetai ويلح أ. باشمكوف A. Bashmakov على وجود روابط بين الـ «ميشخ» والخزر، وذلك ليثبت نظريته عن الخزر، التي تقول إنهم ليسوا من الترك من داخل آسية بل مما دعاه «أبناء يافث» أو «الألارديين» alarodian وهي جماعة من جنوب القوقاز[4].

ومن الواضح أنه لا يوجد شكل مسبق الصنع حول هذه العلاقة الأسطورية بين الخزر ويافث، وقد جاء في تاج العروس أنه قد قيل بأنهم من ولد كاشح (ماشح أو ماشخ تصحيف ميشخ؟) بن يافث، وقيل هم والصقالبة من ولد ثوبال (توبل)، زد على هذا أننا نقرأ أيضاً عن بلنجر بن يافث عند ابن الفقيه[5] وعند أبي الفداء[6]، وأن بلنجر هذا هو مؤسس مدينة بلنجر، ويقودنا هذا الاستخدام إلى الافتراض أن هذا يساوي إعطاء بلنجر شخصية عرقية منفصلة، ومفيد أن نذكر أنه في العصور التاريخية كانت بلنجر معروفة كمركز من مراكز الخزر المشهورة حتى أن المسعودي يذكر أنها كانت عاصمة الخزر[7].

ليس من الضروري الاستمرار في إيراد مثل هذه الروايات حول يافث، ذلك أن مصدرها الإسرائيلي واضح وبديهي، ولقد لفت بولياك Poliak الأنظار إلى نص عربي

---

(1) هـ. جب «الفتح العربي لآسيا الوسطى» لندن، 1923: 83... الفصل 4/ 96.

(2) ابن فضلان: 196....

(3) المصدر نفسه: 244.

(4) مركيور دي فرانس: 229 (1931) 39...

(5) B. Q. A, V, 289.

(6) تحقيق رينيود ودي سلان: 219.

(7) تنبيه: 62.

حول تقسيم الأرض جاءت فيه كلمتا شمال وجنوب بالعبرية[1] ونجد في دوائر الحكايات الإيرانية تقاليد مشابهة، فتبعاً لبعضها نجد البطل أفريدون يقوم بتقسيم الأرض بين أولاده: طوج (أحياناً طور الجد الخرافي للطورانيين) وسلم وإيرج، وهنا أيضاً يظهر الخزر مع الترك والصينيين في الجزء المخصص لطوج، الابن الأكبر[2].

وتربط بعض الحكايات بين الخزر وإبراهيم الخليل، وقد نقل بولياك منها قصة المقابلة التي جرت في خراسان بين أبناء قطورا والخزر، حيث جرى ذكر الخاقان من ابن سعد، والطبري[3] وتظهر هذه الحكاية في مخطوطة مشهد من كتاب ابن الفقيه، حيث أوردها كجزء من رواية رحلة تميم بن بحر إلى بلاد الايغور، وفي الحقيقة تعود هذه الحكاية إلى هشام بن محمد الكلبي[4]، ويميل زكي وليدي نحو الإلحاح على تأكيد صحة هذه الرواية ليتخذها دليلاً على وجود الخزر في هذه المنطقة في ذلك التاريخ المبكر[5]، ويشير الجاحظ أيضاً إلى أسطورة أبناء إبراهيم، وإلى استقرار قطورا في خراسان، لكنه لم يأت على ذكر الخزر[6]، ويذكر الدمشقي أنه جاء في إحدى الروايات أن الترك هم أبناء إبراهيم من قطورا، التي كان والدها من العرب العاربة، وأن من أبناء إبراهيم أيضاً الصغد والكرغيز الذين يعيشون في منطقة ما وراء نهر جيحون، هذا ومن المفيد أن ننوه أن الدمشقي لا يؤمن بصحة هذه الرواية[7] النسبية.

ومن المجموعة الثانية المرتبطة بالاسكندر الكبير، نجد أن الفاتح الكبير بعدما تقدم من مصر إلى شمال أفريقية (القيروان) فالتقى بقنداقة ـ وهي من نوع ملكة سبأ نفسها التي

---

(1) «تحول»: 3.

(2) طبري: 1/ 229.

(3) خزاريا: 23، 142، 148. ابن سعيد: 1/ 1/ 22. الطبري: 1/ 1/ 347.

(4) هشام بن محمد، وجاء في رواية ابن سعد: هشام بن محمد بن السائب الكلبي في نص ابن فضلان (في ف. مينورسكي، رحلة تميم بن بحر إلى الإيغور، دورية معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، 1948: 12/ 2/ 282).

(5) ابن فضلان: 294.

(6) فضائل الترك. ترجمة من قبل هارلي ولكر ـ المجلة الآسيوية الملكية ـ 1915: 687.

(7) تحقيق مهرن: 262.

اشتهرت أيام سليمان ـ اتجه شمالاً إلى أرض الظلمات، وبعد رجوعه من هناك أسس مدينتين على حدود بلاد الإغريق، ثم عزم على الرجوع إلى الشرق لكن وزراءه حذروه من الصعوبات الكبيرة التي سيواجهها عند عبور البحر الأصفر ذي المياه الآسنة، وعلى الرغم من تحذيرات الوزراء له، وعلى الرغم من المصاعب، اجتاز الاسكندر الأراضي الإغريقية، ووصل إلى بلاد الصقالبة الذين دانوا بالطاعة له، ومن ثم تابع مسيرته شرقاً حتى وصل إلى بلاد الخزر، وخضع هؤلاء بدورهم له، ومن هناك استأنف مسيرته إلى أراضي الترك، ثم إلى المفازة الواقعة بين أراضي الترك والصين، وهكذا إلخ. . . [1].

وأمام هذا النوع من القصص لا غرابة أن نسمع خبراً عن علاقة بين الإسكندر والخزر، مثل الخبر الذي جاء عن وهب بن منبه، وفيه أن الاسكندر وجد الخزر في منطقة مرو، وهراة[2]، ونحن لا نقيم وزناً لهذا الخبر ولا نعده صحيحاً، هذا ويشير الطبري بشكل مماثل إلى أن المكان الذي التقى به الاسكندر مع ملك الفرس وهو خراسان، قرب حدود بلاد الخزر، فهناك دارت رحى معركة كبيرة[3]، ونحن سواء قبلنا هذا الرأي، أو عددناه مفارقة تاريخية، فإنه ينبغي ألا تفوتنا أهميته وعدّه شاهداً على مدى اتساع نشاط الخزر إلى شرقي بحر قزوين في وقت من الأوقات، وبما أن معظم القصص الواردة حول الإسكندر هي بعيدة كل البعد عن الحقيقة لا نستطيع أن نستفيد أكثر من هذه الرواية في قليل أو كثير كي نعتمد عليها كمصدر له قيمته.

ونستطيع القول دونما تردد إن كل ما ورد من إشارات إلى الخزر في عصر الإسكندر هو من نسيج الخيال، ومن البداهة بمكان أن هذا ينطبق على كتاب «اسكندر نامة»، لنظامي، حيث يورد المؤلف اسم الخزر مع الروس كأعداء للاسكندر في الشمال[4]، ذلك

---

(1) الدينوري ـ الأخبار الطوال ـ تحقيق غورغاس وكراتسكوفسكي: 37. . . .

(2) اقتباس زكي وليدي، ابن فضلان: 294.

(3) 1/ 699.

(4) على سبيل المثال: قنطال مقدم الروس الذي جمع جيشاً مثل البحر أو الجبال من البرطاس واللان والخزر، ويقول صاحب اسكندر نامه في مكان آخر: رأيت من جبل الخزر إلى بحر الصين أراضي جميع الترك، وقال في مكان آخر: احتشد جيش الروس مع رجال الخزر.

أن مجرد التعرض لذكر الروس هو مفارقة تاريخية ظاهرة للعيان، ولاشك أن هـذه الفكـرة قد خطرت للشاعر لأنه كان يكتب في نهاية القرن الثاني عشر، حيث أنه كان متأثراً بما كـان يعرفه من أخبار غارات الروس على الفولغا عبر بحر قزوين[1]، ثم إنه لا شك أنه كان ملماً بالظروف المحلية في منطقة بحر الخزر[2] ومن الواضح أن نظامي وضع بصماته الخاصة علـى قصة الاسكندر، وفي اتجاهات أخرى[3] فمعارك الفاتح مـع الـروس لـم يذكرهـا أي كـاتب آخر غيره، قبل هذا التاريخ، وليس هنالك من شك في هذه الحقيقة.

وإلى الآن لم نتعلم الشيء الكثير من المصادر العربية والفارسية حول التاريخ القديـم للخزر، ويبقى لنا أن نفتش لعلنا نرى فيما إذا كان هنالك أي ضوء يمكن أن يلقى على هـذه المسألة وعلى الخزر بصورة عامة، وذلك بواسطة المجموعة الثالثة من المقتطفات التـي قدمـها الكتـاب المسلمون الذيـن يذكـرون وجـود بعـض الروابـط بـين الخـزر وبـين عـدد مـن ملـوك فارس، وخاصة كسرى أنوشروان منهم.

ولدينا وصف لحملة عظيمة ضد الترك في أيام كي خسرو (قورش) الفارسـي كـانت تحت لواء أربعة من قادته، زحف واحد منهم ضد الأعداء عبر طريق بلاد الخزر، لكن كمـا هو معروف إن تاريخ حكم قورش أقدم بكثير مـن قصـص الاسـكندر، لذلـك إن التعـرض لذكـر الـترك فـي زمنـه هـو واضـح الغلـط، وعلـى هـذا يمكننـا أن نعـدّ الروايـة التـي ذكرهـا الطبري[4] وابن البلخي[5] هي محض اختراع متأخر.

وعثر على رواية أسطورية أخرى حول بلاط الخزر في نص مـن النصـوص الفارسـية موجود في مكتبـة جامعة ليـدن[6]، ويدعـى مؤلـف هـذه الروايـة محمـد بـن علـي الكـاتب السمرقندي، وقد عـاش فـي القـرن الثـاني عشـر، وكـان قـد أوقـف كتابـه علـى واحـد مـن

---

(1) جرت مناقشة هذه الأمور فيما يلي في الفصل السابع.

(2) كما كان الشاعر خاقاني، أنظر الفصل 9.

(3) نولدكه ـ الاسكندر نامه ـ أكاد ـ الكتاب 38. رقم 5/ 51 ـ 53.

(4) 1/ 609.

(5) المصدر نفسه: 45.

(6) فهارس أسماء المجموعات الشـرقية Batavac - Acad Lcegduni : 3/ 14. رقـم 927. أديـن بـهذا المصدر إلى الأستاذ. أ. م. هني مان من جامعة سانت أندروز.

القرا ـ خانيه ، وعنوان الكتاب هو «أغراض الرئاسة» وقد ذكر حاجي خليفة الكتاب[1] ، كما وتحدث عنه بارثولد عاداً إياه بمثابة مصدر تاريخي[2] ، أو بالحري ، كما قال : المصنف التاريخي الوحيد الذي كتب في منطقة ما وراء النهر ، في ظل حكم الدولة القرا ـ خانية ، هكذا قدر بارثولد الكتاب ، وهذا رأي شخصي ، ذلك أن الكتاب أشبه بالكتب الأدبية ، وضعت موضوعاته لخدمة الأمراء لتكون بمثابة مرآة لهم ، والفقرة الوحيدة الوثيقة الصلة بمانحن بصدده تبدأ بأسلوب فخم ، وعبارات رنانة على غرار أساليب الكتاب الفارسية آنذاك يقول فيها : «إن خاقان ملك الخزر هو السلطان ، وهو النسر الذي استحوذ على مناهل السعادة ، والصقر الذي استطاع بحكمته التي زينت المملكة ورعتها أن يجعل من الطاووس فريسة له ، وهو الذي حاز على مراتب السيادة والسلطان في العالم»[3] .

وبعد إيراده لبعض الملاحظات عن أحوال الملوك حكى : «أنه في أحد الأيام أقام الخاقان وليمة ، وجلس وحده ليس معه سوى زمرة من ندمائه المقربين المرحين» وهنا دخل عليه واحد من أبناء الضحاك التعزي ، ومن الواضح أنه كان عربياً (يطلق اسم الضحاك في الأساطير الإيرانية القديمة على البدوي ممن يمارس أعمال السلب) .

وبعدما قدم فروض الطاعة والاحترام للخاقان ، دعاه للشراب معه ، وحالما جلس الاثنان يشربان بدأت الموسيقى بالعزف ، ودار الحديث حول المسائل الموسيقية ، وجرى توجيه سؤالين متتاليين إلى الأمير العربي ، كان أولهما : ماذا تعرف عن السماع؟ وثانيهما : لماذا ينجذب المستمع إلى الموسيقى ، وينفعل ويرتبك أثناء السماع؟ وأجاب الأمير ، وأعجب الخاقان واقتنع بإجابته ، التي دلت على رجاحة عقله ، واتساع معرفته فسأله سؤالاً ثالثاً هو : لماذا تعثرت أقدامكم أنتم العرب ، وقلبت لكم السعادة ظهر المجن ، بعد أن دانت لكم ملوك الأرض ، وسجدت على أعتابكم نجوم السماء؟ وأجاب ابن الضحاك بجواب مناسب . وقال : إن سبب ذلك عائد إلى سوء الحكم ، وتبع هذا الجواب بعض الحكم الأخلاقية ، حيث أوردها المؤلف قبل أن ينهي القصة .

---

(1) 1/ 368 .

(2) تركستان (سلسلة ذكرى جب) 18 .

(3) تفضل الأستاذ مينورسكي بتقديم ترجمة للمقاطع الصعبة .

وتبدو هذه القصة وكأنها حكمة، ذات مغزى أخلاقي أكثر من كونها تاريخاً، فالضحاك كما رأينا كان ينتمي إلى عالم الأسطورة، وملاحظات ابنه حول السماع تعكس لنا نظريات ذلك العصر عن الموسيقى، ويبدو أن المؤلف قد اخترع هذه القصة في القرن الثاني عشر، بغية تثقيف مولاه[1].

والذي يهمنا هنا هو معرفة الأسلوب الذي يقدم لنا السمرقندي الخزر فيه، فالمصادر الأخرى، سواء العربية منها أم الفارسية تصف خاقان الخزر في عصر ما قبل الإسلام بأنه ملك عظيم، يخوله مركزه كزعيم فئة هامة من البشر أن يكون في مصاف الحكام الساسانيين أو أباطرة الصين، وليس هنالك أروع ولا أدق من هذه الفقرة التي تمثل هذا الخاقان لأنها تمتاز على جميع المصادر سواء الصحيح منها أو المشكوك بصحته، فهنا يظهر الخاقان كرجل وثني، أو على الأقل غير مسلم، مدمن على معاقرة الخمرة، كثير الاهتمام بالموسيقى ومباهجها، تحيط به زمرة من رجال البلاط، وذلك على عكس خانات العصور المتأخرة، الذين روي عنهم أنهم كانوا يعيشون حياة عزلة.

وتروي القصة أن الأمير العربي عامل الخاقان بكل احترام، وفوق هذا كله، كان الخاقان واسع الاطلاع والمعرفة، أنيساً دمثاً، عذب المعاشرة، يتحدث ببساطة الحكماء حول الشؤون الإنسانية، ولا يمكننا طبعاً أن نتأكد أن هذه الصفات تتفق مع الواقع، ومع الحقائق التاريخية، فذلك من المحال تماماً.

وهنالك حادثة ربما كانت ذات دلالات أكثر إيجابية، يذكرها المسعودي ويقول بأنها حدثت في بلاط شيرويه في القرن السابع، لكنها تتحدث عن واقعة حدثت في حقبة أقدم، ويحكي المسعودي[2] أنه حدث أن سأل الملك شيرويه واحداً من رجال بطانته، وهو ممتط ظهر جواده، إذا كان يذكر الخدعة الحربية الشهيرة التي قام بها جده أردشير بن بابك في حربه مع ملك الخزر، وأراد رجل البلاط أن يطري الملك ويتملقه ويسليه، فتظاهر بعدم علمه بتلك الخدعة، وأخذ الملك يقص عليه، فتظاهر بالاستغراق في الإصغاء إليه، وإلى سماع تفاصيل الحكاية إلى حد أنه سمح لحصانه أن ينزلق في قناة صغيرة.

---

(1) هل كان للقراخانيين (الايلكخانيين) اهتمامات خاصة في بلاد الخزر؟. انظر الفصل السادس.

(2) مروج: 4/ 124 . . . .

ومن الواضح أن المعلومات الواردة في هذه القصة يقصد منها أن نفهم أن الخزر كانوا موجودين في زمن أردشير (226 ـ 340م)، ولكن العرب يشيرون بإيجاز لنشاطات أردشير في توجهاتهم[1]، وخاصة لدى ذكرهم احتلاله لصول (دربند) المركز الهام في النهاية الشرقية لجبل القوقاز، إلا أنه من الصعوبة بمكان أن نكتشف ما كان يعنيه المسعودي في قوله: «الخدعة الحربية الشهيرة»، بسبب أننا لا نجد في أي مصدر من المصادر التاريخية الأخرى عدا المسعودي أي ذكر لأية علاقة صريحة لأردشير مع الخزر، ولهذا لا نستطيع عدّ رواية المسعودي هذه كدليل على وجود الخزر في القرن الثالث الميلادي.

ثم مادامت هذه الظروف كانت معروفة وموثوقة بحسب رواية المسعودي فلماذا لم تذكر في كتاب «الكانامال» وهو كتاب جاء بالفلهوية، أوقفه صاحبه على تاريخ أردشير، وقد ترجمة نولدكه؟[2] ولهذا إن الاحتمال الأكثر قبولاً هو إن إشارة المسعودي هذه ما هي إلا لملك فارسي آخر، وليس لأردشير، كما سنرى.

وهناك إشارة موجزة للخزر، جاءت بمثابة مفارقة تاريخية، ذلك أنها تحدثت أن الخزر زحفوا ضد شابور بن أردشير في جيوش الأمبراطور جوليان[3]، وتوقفت المصادر الإسلامية إثر هذا عن ذكر أي شيء عن الخزر لا في قليل ولا في كثير حتى وقت متأخر نسبياً، ويذكر الطبري[4] أن الأمبراطور فيروز بنى دفاعات من الحجر قرب صول[5]، واللان، وذلك بهدف حماية بلاده من الأمم الشمالية، ويذكر المؤلف الإغريقي برسكوس أن الأمبراطور بيروزس (فيروز)، قد ارسل في حوالي عام 465م رسالة إلى كونخاس (قون ـ خان) ملك الهون القيذاريين، يقول فيها إنه يرغب في مسالمته ومحالفته، وعرض عليه أن يزوجه أخته، ووافق كونخاس على هذا العرض، ولكن أرسلت له امرأة فارسية أخرى بدلاً من أخت الملك فيروز، وعندما حل السلم بينهما أفشت هذه المرأة سر الخدعة إلى

---

(1) انظر ابن خلدون، ط1284هـ: 2/ 1/ 169.

(2) Betrage Zue Kunde der indogermanischen sprachon: 4 (1878) 22.

(3) الطبري: 1/ 840.

(4) 1/ 895.

(5) هي الكلمة الإغريقية Tzour (تاريخ بروكوبيوس: 8/ 3/ 4) من الأرمينية Tsur «باب» (: كور).

الملك القيذاري، وهنا أصر هذا الملك على استمرار زواجه منها، لكنه شعر بالإهانة، وأراد الانتقام من فيروز، فطلب منه إرسال عدد من أعيان الفرس، وعندما وصل هؤلاء إليه، أعدم قسماً منهم، وأعاد الباقين مشوهين إلى سيدهم[1].

وبالنسبة إلى هذه الرواية ليس هناك من سبب يدعونا للشك في صحتها، بما في ذلك الحل الوحشي الذي تتمحور القصة حوله مادام برسكوس قد روى أحداثاً وقعت في عصره، وكان يعيها ويعرفها تماماً، ويمكننا أن نرى القدر نفسه من الصحة في رواية أخرى تحدث بها عن شخص اسمه قسطنطينوس ذهب رسولاً من البلاط البيزنطي إلى فيروز في عام 465م، وقابله، وهنا نجد قصة الخديعة الحربية الشهيرة لدى المسعودي التي مارسها ملك الفرس ضد ملك الشمال، فهل يا ترى هذه منقولة عن تلك؟.

وقبل أن نستمر في حديثنا، نرى لزاماً علينا أن نسأل: من هم القيذاريون؟ إن وجهة نظر برسكوس العادية تفيد أنه أراد بهم الهياطلة (الهون ـ البيض)، الذين تسببوا أخيراً بموت فيروز، ويلاحظ «بري Bury» أن القيذاريين الأصليين هم الهون الذين استقروا فيما وراء بحر قزوين، وهددوا ممر داريل[2]، ويذكر برسكوس أيضاً أن الفرس احتفظوا بقلعة يوريوباخ؟[3] Yuroeipakh عام 465م، ويبدو أن هذه القلعة كانت واقعة في النهاية الشرقية لجبال القوقاز، وجاء احتلال الفرس لهذه القلعة خلافاً لرغبات القيذاريين، وقد طلب الفرس من الرومان أن يساهموا في حمايتها.

ثم يذكر ـ برسكوس ـ في مكان آخر أنه عندما زحف شعب السرغور في عام 468م ضد الفرس قابل الحامية الفارسية عند دربند ـ بوابة بحر الخزر ـ المكان الذي سلف للفرس أن أوقفوا به زحف القيذاريين من قبل[4]، وبعد أمد قصير من هذا وصل إلى القسطنطينية ـ في سنة 472م ـ سفارة فارسية أعلنت عن انتصار الفرس على القيذاريين وعن سقوط مدينة

---

(1) طبعة بون: 220. . .

(2) بري، ثيودسيوس: 2/ 4. رقم 5.

(3) المصدر نفسه 159 مع الفار، يوروساخ.

(4) المصدر نفسه: 161.

«بلعم» التي من المحتمل أنها كانت واقعة شمال جبال القوقاز، والاسم في صورته الحالية هو مصحف بسبب أخطاء النساخ[1].

ومن هذا كله يفرض علينا السؤال التالي نفسه: هل نستطيع أن نعدّ قيذاريي القرن الخامس هم الخزر أنفسهم يا ترى؟ إن الرأي القائل بوجود علاقة بين القيذاريين والهياطلة لا يعارض هذا ولا يناقضه، وذلك لأنه يبدو أن هنالك صلة نسب بين الهياطلة والخزر، فلقد كانت عادة تعدد الأزواج التي اشتهرت في بلاد الخزر، أو على الأقل كانت مألوفة بينهم فقط، انتشرت أيضاً بين الهياطلة[2]، وهنا نلاحظ إنه إذا لم تكن النصوص التي ذكرها برسكوس قد أصابها سقط أو ألم بها تصحيف فإن القيذاريين يتميزون كلياً عن الأكتزير (الأكتير ـ الأكتير) الذي أتى على ذكرهم، وإذا كان القيذاريون هم الخزر فمن الواضح أن الأكتزير ليس هم الخزر.

وإذا ما استأنفنا سرد الرواية نجد أن قباذ (488 ـ 531م) اهتم مثل أبيه من قبله بأمور الدفاع عن دربند، ولقد ذكر المؤرخون أكثر من مرة أنه بنى خطاً دفاعياً من الطوب في منطقة جبال القوقاز[3]، ثم أرسل واحداً من قادته على رأس حملة ضد الخزر الذين كانوا قد احتلوا جورزان (جورجيا) وأرّان (ألبانيا)[4] إلى الجنوب من تلك السلسلة، وقد قيل بأن هذا القائد قد تمكن من انتزاع قسم كبير من تلك المنطقة منهم، ثم ما لبث قباذ نفسه أن لحق بقائده، فوصل إلى أرّان حيث بنى بعض المدن التي أصبحت لها أهميتها فيما بعد، وهي بيلقان، وبرذعة، وقبله.

وتعزى هذه الرواية إلى البلاذري المعدود من الثقات في هذا المجال (ت بعد: 279هـ/ 892م)، وهناك رواية أخرى يوردها اليعقوبي (ت، بعد عام 278هـ/ 891م) قال فيها: وكانت الخزر المتغلبة على عامة بلاد أرمينية، وعليها ملك يقال له خاقان، وله خليفة

---

(1) المصدر نفسه: 165.

(2) مرقوارت ـ تاريخ غلوسن: 200. وانظر زكي وليدي ـ ابن فضلان: 131.

(3) البلاذري: 194. ابن خرداذبه: 123. وامتدت تبعاً للبلاذري فيما بين بلاد شيروان (على بحر قزوين) وباب اللان (ممر داريل في وسط القوقاز).

(4) البلاذري: المصدر نفسه. انظر ابن خرداذبه: 122. كانت بلدان: أران وجوزجان وسيسجان من ولايات مملكة الخزر.

يقال له يزيد بلاش على الران وجرزان، والسفرجان والسيسجان، وكانت هذه الكور تسمى أرمينية الرابعة التي افتتحها قباذ ملك الفرس، ثم صارت إلى أنو شروان، إلى باب اللان، مائة فرسخ، وفيها ثلاثمائة وستون مدينة، وغلب ملك الفرس على الباب والأبواب (دربند) وطبرسران، والبلنجر، وبنى مدينة قاليقلا، ومدناً كثيرة، فأسكنها قوماً من أهل فارس، ثم غلبت الخزر على ما كانت فارس غلبتهم عليه، فأقام في أيديهم حيناً ثم غلبتهم الروم، فملّكت على أرمينية الرابعة ملكاً[1].

ومن الواضح أن الجزء الأول من هذه الرواية يعود إلى زمن قباذ، وهناك ما يؤكد لنا أن خليفة الخاقان الخزري، أي «البيك» كما هو مفترض ظل مسيطراً على جزء من أرمينيا حتى هزمه الفرس، وللوهلة الأولى ليس هنالك من سبب يجعلنا نشك في صحة الرواية تاريخياً مادام كل من البلاذري وابن خرداذبه يؤيدها، أما لقب خليفته أو اسمه فهو بالتأكيد اسم تركي، شأن معظم الأسماء الخزرية التي نعرفها (محاولة هوتسما ـ محقق نص تاريخ اليعقوبي ـ لتصحيح الشطر الأول من الاسم يجعله «يزيد» ليس أمراً مرضياً).

ويشير الشطر الثاني من الرواية إلى الوضع على الحدود الخزرية في حقبة متأخرة قبل مجيء العرب بقليل، ويتضح لنا من هذه الرواية أول ظهور الخزر وهم يقومون بغاراتهم، أو يهاجرون هجرات جماعية إلى جنوب القوقاز، كما سنقابلهم فيما بعد في مناسبات مختلفة، وتاريخ هذه الأحداث لا يقل عن عام 531 (سنة موت قباذ)، وفوق ذلك كله إن هذه الرواية لا تذكر شيئاً عن وجود مؤسسة الخاقانية لدى الخزر، لا بل أكثر من ذلك وجود الملكية المزدوجة في ذلك العصر.

إن هذا الموقف صعب، ليس لأن الخاقان الخزري أو خليفته غير مذكورين بوضوح في المصادر المتوفرة لدينا حتى زمن متأخر فحسب، بل لأن وجود خاقان على رأس شعب تركي يفهم منه وصول هذا الشعب إلى مرحلة السيادة والاستقلال، وعندما يظهر اسم الخزر فيما بعد يظهرون بمثابة جزء من الاتحاد التركي الغربي الزاحف تحت زعامة تركية غربية، وبالإضافة إلى ذلك، إذا ما وثقنا برواية اليعقوبي كما هي، نجد

(1) التاريخ، تحقيق هوتسما: 1/ 3. ـ 204.

الخزر ولهم خاقانهم وخليفته يظهرون بشكل كامل في وقت لم يكن قد قام به أي ذكر لأية امبراطورية تركية غربية بعد، لا بل حتى قبل أن يظهر الاتحاد التركي الأصلي إلى الوجود في عام 552م.

ونحن إذ نعدّ أن الخزر لربما كانوا قد ظهروا في الغرب، قبل هذا التاريخ، يبدو من المؤكد بشكل عملي أن ظهورهم بمثابة قوة عظمى له صلة بانحطاط الترك الغربيين، فحكم الفاغانات (الخاقانات) الأتراك الغربيين قد استمر حتى عام 657 أو 659م عندما جرى سحقهم من قبل الصينيين[1]، وإنه ابتداء من هذا التاريخ فصاعداً يمكن للمرء أن يتوقع وجود خاقانية بين الخزر[2].

وأما أقوال اليعقوبي المفاجئة فيمكن أن نتركها للبحث في المستقبل الذي يمكن أن يؤكدها، وفي الوقت نفسه من الممكن أن نقترح لها تفسيراً موازياً على أساس الخطوط التي نعرفها، فمضمون أقوال اليعقوبي تشير إلى أنساب الشعوب الشمالية التي لا تذكر المصادر أية شيء حول أصولها[3]، لكن هذه المعلومات تتصل بالأنساب التي أوردها هشام الكلبي[4].

ومن المعقول أن نفترض أن الكلبي هو مصدر اليعقوبي، خاصة عندما يورد هشام الكلبي أي خبر عن خاقان الخزر[5]، وهذا ما يمنحنا ترتيباً تأريخياً معتمداً حول وجود الحكم الملكي المزدوج لدى الخزر، وكان المصدر الأساسي الذي اعتمده هشام الكلبي هو والده الذي توفي عام 146هـ/ 763م. أما هشام نفسه فقد ظل حياً حتى عام 204هـ/ 819م[6]. وإذا ما اعتمدنا تاريخاً يقرب من ثلاثة قرون من هذا التاريخ، نكون قد اعتمدنا تاريخاً مبكراً جداً، وعليه نجد من جهة أخرى ليس من قبيل الصدفة أن يذكر

---

(1) شافانس، الوثائق: 267 ـ 268.

(2) يدعى زكي وليدي (ابن فضلان: 293) أن تقاليد الخاقانية أقدم من أتراك الغرب وذلك على أساس إيغورية الترك (انظر ما سلف) والملامح الطبقية في مؤسسات الخزر.

(3) انظر مرقورات streifzuge: 491.

(4) على سبيل المثال الطبري: 1/ 28.

(5) انظر supra، الأرقام 54 ـ 54.

(6) التاريخ مأخوذ من بروكلمان (تاريخ الآداب العربية) 1/ 139.

الخزر أثناء حكم قباذ وأنو شروان (531 ـ 579م)، فالعدد المتزايد من الأخبار المتواترة التي صدرت بهذا الشأن تبدو برهاناً ساطعاً على أنهم كانوا موجودين بالفعل على مسرح الأحداث[1].

ويروي لنا الطبري[2] أن أنو شروان قسم امبراطوريته إلى أربع مقاطعات كبيرة أو «إصبهذين» وكان من بينها إصبهذ أذربيجان وما والاها «بلاد الخزر» وقد كان منشغلاً في الحرب مع إحدى الأمم التي عرفت باسم «صول» وهم بالتأكيد سكان الأصقاع الشرقية القصوى لجبال القوقاز، في أحواز ممر صول (دربند)، وقهر أمة عرفت باسم بنجر[3]، وأمة عرفت باسم بلنجر، وأمة أخرى لربما كانت هي الخزر[4]، (نظراً لورود ذكرها متميزاً عن الأمم الأخرى) عندما غزت أرمينية، ثم أسكن حوالي 000 . 10 من الذين بقوا أحياء في أذربيجان، وبنى باب الأبواب ـ التسمية العربية لدربند وهو عبارة عن قلعة ومدينة، استهدف منها أن تقف في وجه موجات الغزو الشمالية، وتبطلها، وقد قامت هذه المدينة بالدور الذي أسند إليها بنجاح في القرون التالية.

لقد جذبت شخصية أنو شروان اهتمام رواة الأخبار، ونقرأ عند كل من قدامة[5] وياقوت[6] أن أنو شروان كان يخشى عداء الخزر، فكتب إلى ملكهم يطلب منه الموادعة والمحالفة، ولتأييد هذا الطلب طلب إرسال أميرة خزرية يتزوجها، وعرض مقابل ذلك تقديم ابنته ليتزوجها ملك الخزر، وقد وافق ملك الخزر على هذا العرض، وبعد مدة

---

(1) هنالك مصدر بهلوي أصيل في «بوهمان يشت» تاريخه من حوالي الحقبة نفسها. انظر هـ. و. بيلي «إيرانيات» في دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية: 9/ 1/ (1943) 1 ـ 2.

(2) 1/ 894 ـ 895. كما يبدو جزء من توجيه إلى الحاكم الفارسي لأذربيجان وأرمينيا (انظر المصدر نفسه 892) وعلى كل حال من مصدر بهلوي (انظر ما يلي).

(3) ربما يمكن قراءتها مع مرقوارت (streifz, 16) «برغار» وتعني صيغة بهلوية لكلمة «بلغار» أو أخذها من كما هي لتدل على شعب اسمه «وندر» والمعنى في كلتا الحالتين هو نفسه. انظر الفصل الثالث.

(4) في طبعة ليدن من نص الطبري (نولدكه) «ابخاز» وانظر أيضاً مرقوارت streifzuge, 16 والمصدر في رقم 3. المصدر نفسه.

(5) المكتبة الجغرافية العربية: 6/ 259 . . . النص موجود حرفياً في البلاذري: 195 ـ 196 لكن بكلمة «أتراك» بدلاً «خزر».

(6) معجم البلدان، مادة «باب الأبواب».

استلم أنو شروان عروسه، ولكن الفتاة التي أرسلها إلى ملك الخزر لم تكن من الأسرة الملكية، وقد اجتمع الحاكمان فيما بعد في مكان يدعى برشلية، حيث أولمت الولائم لعدة أيام، وتظاهر الفريقان بالصداقة، وبعدها تسبب أنو شروان في إحراق جزء من معسكر الخزري، وعندما شكا ملك الخزر، أنكر أنو شروان معرفته بهذا العمل، وفي اليوم التالي أمر أنو شروان بإحراق معسكره الخاص، وتوجه إلى الخزر وهو يتظاهر بالغضب، وأعلن أنهم - أي الخزر - يشكّون بإخلاصه.

وأخيراً أعلن أنه على الرغم من وجود الصداقة بينه، وبين أخيه ملك الخزر لا يمكن أن يكون هنالك أي سلم بين الجيوش، ولذلك اقترح بناء سور للفصل بين هذه الجيوش، ووافق ملك الخزر، وترك الفرس يحصنون دربند، لكنه علم فيما بعد أن أنو شروان قد خدعه في مسألة الزواج، وأنه قد بنى السور ضده، لكن على الرغم من عظيم غضبه لم يستطع أن يفعل شيئاً.

يبدو من المحتمل بشكل واضح أن هذه الرواية، أو ما يشبهها، هي حكاية الخدعة الشهيرة نفسها، التي ذكرها المسعودي، وهي قصة غير تاريخية فعلاً، وإن الحادثة التي ذكرها برسكوس الإغريقي، وقال إنها حدثت في أيام فيروز، هي أساس الجزء الأول من هذه الرواية[1]، وقد تحولت هذه الحادثة إلى أنو شروان، لأنه هو الذي تزوج ابنة قاغان الأتراك الغربيين سنيجبو (إستامي)[2].

هذا ومن غير المشكوك فيه أن يكون أنو شروان كان مسؤولاً عن بناء سور دربند وذلك كجزء من إجراءاته الدفاعية في جبال القوقاز، لكن الظروف التي وصفت في القسم الثاني من القصة هي لاشك حوادث خيالية.

ويظهر الفرق بين الأسطورة والحوادث التاريخية في رواية نقلها الطبري[3] جاء فيها: «وإن سنيجبو خاقان كان أمنع الأتراك وأشجعهم، وأعزهم، وأكثرهم جنوداً، وهو

---

(1) انظر ما سبق.

(2) انظر مرقوارت «التاريخ الكلاسيكي»: 199.

(3) 1/ 895 - 896. تاريخ المصدر البهلوي المشار إليه في رقم: 1 في الصفحة الماضية.

الذي قاتل وزر ملك الهياطلة غير خائف كثرة الهياطلة ومنعتهم[1]، فقتل وزر ملكها وعامة جنوده، وغنم أموالهم، واحتوى على بلادهم إلا ما كان كسرى غلب عليه منها، وإنه استمال (الخزر)[2] وبنجر وبلنجر، فمنحوه طاعتهم، وأعلموه أن ملوك فارس لم يزالوا يتقونهم بفداء يكفونهم به عن غزو بلادهم، وإنه أقبل في مائة ألف وعشرة آلاف مقاتل حتى شارف ما والى بلاد صول (دربند)، وأرسل إلى كسرى في توعد منه إياه واستطالة عليه أن يبعث إليه بأموال، وإلى أبخز، وبنجر، وبلنجر، بالفداء الذي كانوا يعطونه إياه قبل ملك كسرى، وأنه لم يعجل بالبعثة إليه بما سأل وطئ بلاده وناجزه، فلم يحفل كسرى بوعيده، ولم يجبه إلى شيء مما سأله لتحصينه ناحية باب صول، ومناعة السبل والفجاج التي كان سنيجبو خاقان سيسلكها إليه، ولمعرفته بمقدرته على ضبط ثغر أرمينية بخمسة آلاف مقاتل من الفرسان والرجالة، فبلغ سنيجبو خاقان تحصين كسرى ثغر صول، فانصرف بمن كان معه إلى بلاده».

ويشتمُّ المرء من هذه الرواية رائحة الصدق، الأمر الذي تفتقر إليه رواية قدامة ومن لف لفه، ويمكن للباحث على أساسها أن يؤكد وجود بعض المجموعات الأخرى التي انتظمت داخل الامبراطورية الخزرية، أو ربما قام الخزر أنفسهم بالانضواء تحت لواء الترك الغربيين ضد الفرس في الوقت الذي تحدد بانهزام الهياطلة أي حوالي سنة 567م[3]، وبموت سنيجبو عام 575 أو 576م[4]، وبعد سنة من هذا التاريخ أرسل ابن سنيجبو قوة من الأتراك الغربيين لتنضم إلى الايتغور الذين كانوا آنذاك يحاصرون المدينة القرمية المسماة بوسبوروس[5]. (بانتي كابيوم، كيرتش) Panticapaeum. Kertch، ومن الواضح أن الأتراك الغربيين كانوا في تلك الآونة يقومون بعمليات حربية واسعة النطاق في شمال القوقاز، لكن اجتماع أنو شروان في مدينة برشلية مع ملك الخزر أو الترك كما تصفه الرواية التي جاءت عند قدامة هو أمر لم تثبت صحته بعد.

---

(1) انظر شافانس، الوثائق: 226.

(2) النص «أبخاز»، انظر رقم 96.

(3) شافانس، النص نفسه.

(4) شافانس: 242.

(5) مناندربروت، تحقيق بون: 404. انظر شافانس: 241.

وهنالك المزيد من الروايات عن أنو شروان، إذ عندما تم بناء سور دربند نصب له سرير على أنف الجبل يطل على البحر، وحالما جلس أنو شروان على ذلك السرير، إذا بوحش له موهبة الكلام يظهر له ويخاطبه معلناً أنه قد رأى منطقة الحدود هذه تغلق سبع مرات، ثم تفتح سبع مرات أيضاً، لكن أنو شروان هو الرجل الذي قدر له أن يغلق الممر إلى الأبد.

كما ويلحق هذه الرواية رواية أخرى ليست أقل طرافة منها، فيها أن أنو شروان ما أن فرغ من عمل السور حتى شرع يسأل عن طول ساحل بحر قزوين، فقيل له إن البيضاء عاصمة الخزر تقع على مسيرة أربعة أشهر على طول الساحل، فقرر أن يراها بنفسه، ولم يثنه عن عزمه الأقوال التي كانت تؤكد له وجود تيارات (دوامات) مائية خطرة داخل بحر قزوين في مكان يدعى فم الأسد، لا يمكن لأية سفينة أن تنجو من خطرها، لكنه لم يصغ وأمر بنشر أشرعة سفينته وأبحر حتى وصل إلى موقع التيارات، وهنا أصبح على وشك الهلاك، لكنه نجا بأعجوبة، ووصل إلى هدفه، ثم عاد في الوقت المناسب سالماً[1].

من الواضح أن هذه الحكايات وضعت بأسلوب رومانسي شرقي هو الأفضل من نوعه بقصد إضفاء هالة حول حقيقة أن أنو شروان قد قام بتحصين ممر دربند، وتبقى أسماء الأماكن فهذه أمور سنقابلها فيما بعد.

وخلف أنو شروان ابنه هرمز (579 ـ 590م) ولم يكتف هرمز هذا بأن شارك بالحرب ضد سنيجبو أيام أبيه[2]، لكن فيما بعد دعي وهو ملك لفارس، للتصدي إلى ائتلاف عظيم من الأعداء كان يرأسه ـ كما قيل ـ شاهنشاه الترك، ويحتوي على الخزر والإغريق[3]، وكتب هرمز إلى الامبراطور الإغريقي يعرض عليه المسالمة مقابل أن يرد إليه جميع المدن التي سلف لوالده أنو شروان أن استولى عليها، ولاقى هذا الاقتراح موضع

---

(1) ابن الفقيه: 289.

(2) الدينوري: 69. . . ووضع ميرخوند الذي نقل عن الدينوري وصرح بذلك، وضع اسم «خاقان الصين» بدلاً من «الخاقان سنيجبو» (ترجمة ريهاتسك: 1/ 2/ 375) انظر مايلي.

(3) الدينوري: 81. ويضيف الطبري (1/ 991) أن العرب هاجموا في الوقت نفسه في الجنوب.

القبول، وبعد هذا وجه هرمز قادة جيوشه ضد صاحب الخزر، فأمكن طرده من الأراضي الفارسية، وبذلك ملك هرمز الحرية للتفرغ للاهتمام بأمر الترك.

وأهم ما في هذه الرواية هو العلاقة بين الخزر، والترك، ففيها ظهر الخزر وهم يتحركون طبقاً لأوامر الأتراك، وأنهم ينتمون بالفعل إلى الامبراطورية التركية الغربية، وهنا إنه مهما يكن من أمر ليس لدينا من سبب يدعونا لأن نفترض أن الخزر كانوا في هذا التاريخ يتمتعون بالاستقلال، فالهجوم على بلاد فارس جرى تحديد تاريخه في السنة الحادية عشرة من حكم هرمز، أي في حوالي سنة 589م.

وبوصول هرمز إلى الحكم نجد أنفسنا أننا قد وصلنا إلى نقطة بدأت الإشارات فيها إلى الخزر تظهر في مصادر أخرى على رأسها المصادر السريانية وخاصة كتابات ميخائيل (الكبير)، وزكريا الواعظ[1]، ولنقم أولاً بإلقاء نظرة على ما قاله المؤرخ الإغريقي بروكوبيوس عن سكان الأراضي الواقعة ببلاد القوقاز في أيامه أي القرن السادس للميلاد، وحسبما ذكر بروكوبيوس نجد أن اللان والأبخاز الذين كانوا مسيحيين وأصدقاء للروم منذ زمن طويل، قد عاشوا في هذه المنطقة جنباً إلى جنب مع الزجش (الشركس)، وسكن وراء هؤلاء الهون السابريون الذين ورد ذكرهم بين أمم الهون الأخرى، ففي عهد الامبراطور أناستاسيوس anastasius (491 ـ 518م) كان أمبازوك ambazuk الهوني على أبواب بحر قزوين (دربند)، وإثر موته خلفه رجل عرف باسم كبد Kabad، ويتحدث بروكوبيوس عن السابريين، ويقول أنهم كانوا يعيشون في أحواز القوقاز بأعداد كبيرة جداً، وأنهم كانوا ينقسمون إلى عدد كبير من الفئات المستقلة[2]، أما بالنسبة للخزر فيبدو لنا أن بروكوبيوس لا يعرف عنهم شيئاً.

قد يبدو للوهلة الأولى أن اسم السابريين جديداً في وسط مناقشاتنا، لكن بروكوبيوس لم يكن الشخص الأول ولا الوحيد الذي تصدى لذكرهم، وطبقاً لما قاله برسكوس[3] ظهر هؤلاء السابريون على تخوم أوروبا في القرن الخامس، وبالتحديد قبل

---

(1) انظر ما سلف.

(2) بروكوبيوس، التاريخ: 2/ 29/ 25، 8/ 3/ 5، 1/ 10/ 9 ـ 12، 8/ 11/ 23.

(3) طبعة بون: 158. انظر أيضاً د. سنيور «بحث عن هجرات الشعوب وتجوالها» المجلة الآسيوية: م225 (1946 ـ 1947) 771.

عام 465م، وذلك بعدما أجبرهم أفار على ترك أراضيهم في الشرق والتحرك نحو أوروبا، ويشير جوردانس إليهم في القرن التالي، ويقول بأنهم فرع من فرعي الهون[1] الرئيسيين، وقد أيد ثيوفانس ما قاله بروكوبيوس عنهم وذكر بأنهم قد مروا خلال أبواب بحر الخزر في حوالي عام 514م، وغزوا كبد وكية وغلاطية[2].

وبناء عليه يمكننا عدّ السابريين أعداء الفرس على طول حدودهم الشمالية الغربية، وذلك قبل ظهور الترك الغربيين بمدة طويلة، وحتى بعد ذلك لكن لم نعد نسمع عنهم شيئاً كأمة مستقلة بعد النصف الثاني من القرن السادس، ومن المحتمل أنه في حوالي عام 576م هجّر الإغريق قسماً منهم، ولعل هذا القسم كان هو البقية الباقية منهم، وأسكنوهم جنوبي نهر كور[3].

والرأي المطروح الآن هو أنه في حوالي تلك الآونة عزز الخزر زعامتهم في مناطق القبائل القاطنة شمال القوقاز، وبينما يحوم بعض الشك حول إشارة بعض المؤرخين القدماء إلى وجود الخزر في هذه المنطقة لم تصل إلينا أية إشارات أخرى فيما بعد، فالمسعودي (في القرن العاشر) يقول إن الخزر يدعون باسم الترك السابريين[4]، ونرى هذا التعريف واضحاً فيما كتبه محمود الكاشغري (القرن الحادي عشر)[5]، بالأصل كانت الجماعتان مختلفتان[6]، ولا يمكن تفسير اندماجهما إلا بالافتراض أن الخزر هم الذين خلفوا السابريين، وحجبوهم عن الأنظار.

وعلى كل حال يبدو أن تغييرات هامة في إعادة تركيب القبائل قد وقعت بين بداة شمال القوقاز في نهاية القرن السادس، وبداية القرن السابع، وهكذا لم يكن السابريون من اختفت أسماءهم فقط، بل هناك قبائل أخرى مثل السرغور والأوتغور، والسمندر،

---

(1) غيتكا: تحقيق مومسن: 63.

(2) ط. بون: 249.

(3) مناندر: 394.

(4) التنبيه: 83.

(5) انظر أيضاً، زكي وليدي. ابن فضلان: 203.

(6) «تشازيرك» و«سافيرك» متميزان تماماً في الجغرافية الأرمنية المبينة لموسي كيروني (مرقوارت: 57..).

وبلنجر، وغيرهم، ذلك أن المصادر توقفت عن ذكرهم بأسمائهم القديمة هذه، ولا يمكننا أن نعدّ هذا كان وليد الصدفة، أو جاء اتفاقاً كيفما كان، بل لاشك أن له علاقة وثيقة بازدياد نفوذ الخزر وارتفاع نجمهم.

أما بالنسبة لأخبار الحوادث التي قادت إلى اتصال الخزر بالامبراطور الإغريقي هرقل، فقد وصلتنا من مصادر إغريقية، وأرمنية وجورجية، ففي عام 627م كان هرقل في مدينة تفليس في إحدى حملاته ضد بلاد فارس، وهي حملة قام بها بهدف صد الغزو الفارسي لبلاده، وهناك قابله الخزر الذين كانوا تحت لواء زعيمهم زيبل الذي كان في المرتبة الثانية بعد الخاقان، واقتحم هؤلاء الخزر أبواب بحر قزوين وتقدموا نحو معسكره للاجتماع به، ويعطينا المؤرخ جيبون بأسلوب منمق جذاب وصفاً رائعاً لاستقبال الخزر لهرقل[1]، فقد قدم القائد زيبل إلى هرقل ومعه 40.000 رجل، أوقفهم على خدمة الامبراطور، وانسحب إثر هذا عائداً إلى بلاده.

ثم بدأ هرقل ومعه القوات الخزرية بالانقضاض على الأراضي الفارسية، ولكن ما أن حل فصل الشتاء، وشرع الفرس بالهجوم المعاكس بشكل حاد ضد هرقل وحلفائه، حتى أخذ الخزر يتخلون عن جيش هرقل وينسحبون، ربما لأنه ضاقوا ذرعاً بالأسلوب الإغريقي البطيء في إدارة دفة القتال، لكن على الرغم من ذلك فاز هرقل، وهزم عدوه وتابع الزحف متقدماً على رأس الفرقة العسكرية الامبراطورية حتى وصل إلى مسافة مسيرة ثلاثة أيام من طيسفون (المدائن) العاصمة الفارسية، وعندها حدثت ثورة في بلاد فارس، أطاحت بكسرى وسببت موته، وبناء عليه أسرع ابنه إلى عقد معاهدة مع هرقل الذي بادر عندها إلى الانسحاب، ورجع إلى بلاده في عام 628م[2].

وتختلف الرواية الأرمنية بعض الشيء عن هذه الرواية[3] وهي تحكي أنه في عام 625، اقتحم الخزر بلاد أرمينية، وبعد أن أصابوا عدداً عظيماً من الغنائم عادوا إلى بلادهم

---

(1) انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية: فصل 46.

(2) ثيوفانس. ط. بون: 485. . . انظر أيضاً شافانس، الوثائق: 252.

(3) موسى كانمان كيتوك (كالان كتوك). انظر باتكانين في المجلة الآسيوية: 6-7 (1866) 205. شافانس، المصدر نفسه. موسى كانمان قد كتب في القرن العاشر (مينورسكي، حدود العالم: 398).

عن طريق دربند، وبعد ذلك قرر ملك الخزر أن يقود المعركة بنفسه في السنة التالية، وهكذا صدرت الأوامر إلى جميع من كانوا تحت سيطرته، من قبائل وشعوب، من سكان الجبال إلى سكان السهول، وإلى جميع من تظلهم قبة السماء الزرقاء، سواء المحلقين شعورهم أم المقصرين، أن يستعدوا جميعاً للزحف عندما تصدر الإشارة بذلك.

وعندما أزفت ساعة العمل، تحرك الخزر، واستولوا على قلعة تزور Tzur (دربند) وهدموها، وكان ملوك فارس قد بذلوا كل جهد ممكن في سبيل تشييد هذه القلعة، ثم تقدم الجيش جنوباً فذبح رجاله السكان، وسلبوا الثروات، حتى وصلوا إلى تفليس، حيث قابلوا هرقل كما ذكرنا آنفاً، وهنا انضم الجيشان بعضهما إلى بعض، وبادرا إلى العمل سوية، في حصار تفليس، التي كانت على وشك الاستسلام، لولا أن أتتها إمدادات قوية، نجحت في الدخول إلى المدينة، وهنا قرر الحليفان أن ينسحبا بعد أن تفاهما على أن يستأنفا العمل معاً في السنة التالية.

وبعد ذلك في حوالي 626، كما يبدو أرسل الإمبراطور واحداً من قادته يدعى أندرياس للتفاوض مع الخزر، ولكي تتم مراسم الاتفاق بينه وبين الخزر، تقرر أن تتوجه مفرزة مؤلفة من حوالي / 1000/ فارس خزري إلى القسطنطينية لزيارتها، وهنا يتبادر إلى الذهن: لو أن هذه المفاوضات كانت صحيحة وموثقة، لوجب حدوثها قبل اجتماع تفليس، المهم أن ملك الشمال أرسل في السنة التالية ـ 627 ـ الفرق العسكرية التي وعد بها، أرسلها تحت قيادة ابن أخيه الذي كان يدعى شات (شاذ) وقد أعمل هذا الجيش نهباً وتخريباً في أرّان، وأذربيجان.

وطبقاً لما جاء في الحكاية نفسها دخل الخزر في عام 628م إلى أرّان، وكانوا قد استولوا قبل ذلك على برذعه، لهذا توجهوا غرباً نحو تفليس، وكانوا بقيادة الخاقان جيبو Jebu وابنه، وأحاطوا بالمدينة الجورجية، وأحكموا الحصار حولها، وسرعان ما وافاهم هرقل، وانضم إليهم ومعه جيشه الإغريقي المنتصر حديثاً على الفرس، لكن المدينة قاومت ذلك الهجوم المشترك، واضطر الجيشان إلى الانسحاب، وبعد مدة من الزمن استطاع الخاقان جيبو وابنه شاذ أن يستوليا على مدينة تفليس، وعند سقوطها أُتي باثنين من زعمائها، وأوقفا أمام الخاقان جيبو، الذي عاملهما معاملة قاسية، إذ سمل عيني كل منهما، ثم عذبهما عذابا شديداً، وأخيراً صلبهما على أسوار المدينة.

ويضيف المصدر نفسه أن ملك الشمال جبى الجزية من المتعاملين بصياغة الذهب والفضة؟ ومن معدني الحديد، وصيادي الأسماك في نهر كور، وأنه في عام 629 ـ 630م أعد الملك الخزري العدة لغزوة كبرى، أرسل في مقدمتها سلفاً ثلاثة آلاف فارس بقيادة القائد تشوربان طرخان، وهكذا تم إنزال الهزيمة بعشرة آلاف من عساكر الفرس، وانتشر الغزاة في أرجاء أرمينية وجورجيا وأران.

لا نرى أن هنالك ضرورة لمناقشة هذه الروايات، أو محاولة تمحيص توافقها، إذ أن ما يهمنا في هذا البحث هو تطابق أسماء القادة من الجانب الخزري، ذلك أننا نرى أن المؤرخ ثيوفانس يقول بعد أن ذكر أن هرقل قد سعى إلى التحالف مع الأتراك من الشرق الذين يدعون بالخزر: اقتحم هؤلاء أبواب بحر قزوين بقيادة زعيمهم زيبل، الذي كان الرجل الثاني بعد الخاقان في المنزلة، ولقد رأينا زيبل وهو يقدم ابنه وهو ما يزال شاباً أمرد، إلى هرقل، عندما كان هذا الأخير في تفليس، ثم تشير هذه الرواية فيما بعد إلى الخزر باسم الترك فقط.

أما الرواية الأرمنية فتحكي أن ملك الشمال أرسل عساكره تحت قيادة ابن أخيه الذي كان يدعى شاث (شاد)، وأنه بدأ بعد ذلك الخاقان جيبو وابنه شاث في أعمال السلب في جورجيا وأران. وهنا نرى أن المقصود بزيبل هو جيبو، وابن زيبل هو شاث (شاد)، وأن ملك الشمال هو الخاقان الخزري، ونظراً إلى أنه ليس هنالك من شك في أن جيبو (في الجورجية جبغو)[1]، هو اللقب التركي يبغو، الذي يطلق على إخوة وأبناء الخاقان، يصبح زيبل هو اليبغو الخزري.

لكن هنالك اعتراضات ذات شأن على هذا التفسير، منها: أنه إذا كان زيبل هو الرجل الثاني بعد الخاقان الخزري (الذي لم يتأكد أمر وجوده حتى هذا التاريخ) يصبح هذا اللقب مطابقاً للقب الخزري «البك»، وهذا يعني أنه كان منتمياً إلى أسرة هي ليست أسرة الخاقان، فهذا ما تذكره المصادر العربية فيما بعد[2]، وهنا إذا جعلنا زيبل يتطابع جيبو

(1) يقدم المؤرخ الجورجي رواية عن هذه الأحداث (في بروست، تاريخ جورجيا: 1/ 227 ـ 229) لكن ملاحظات مرقوارت (394، رقم 2) ثانوية.

(2) انظر الفصل الخامس.

خاقان، كيف يمكن للمرؤوس أن يصبح رئيساً؟ ونزيد فنقول: يبدو أن الرواية الأرمنية فقط هي التي تميز بين الخاقان جيبو وملك الشمال[1]، ملك بلاد الخزر، لكن هذا لا يتماشى مع رواية المؤرخ ثيوفانس الذي يذكر أن لقب زيبل/ جيبو، هو لقب يتلو في أهميته لقب الخاقان، فزيبل هكذا هو في الحقيقة ليس خاقان الخزر، ولا هو حامل اللقب الأدنى، أي بيك أو يبغو.

ولا يعرف لدى كاتب الرواية الأرمنية إلا زعيم واحد يدعوه جيبو خاقان (أي اليبغو) وهو يطابق بينه وبين ملك الخزر بشكل مغلوط، لأن يبغو خاقان كان لقب حكام الأتراك الغربيين[2] منذ أيام سنيجبو (سن أو المولى يبغو)، وعليه يصبح زيبل هو حاكم الأتراك الغربيين، وهو زعيم عالي المقام، لكن مرتبته أدنى من مرتبة الخاقان الأعظم لجميع الأتراك، وذلك طبقاً لرأي ثيوفانس، وهو لربما خاقان الأتراك الغربيين نفسه المذكور في المصادر الصينية باسم توأونغ تشي ـ هاو Teong che-hou (تي أونغ يبغو)، وكان مركزه الرئيسي في منطقة وديال تشو وطراز (تالاس) شمال طشقند[3]، فالوضع في عام 627م كان طبقاً لما كان من قبل: الخزر يزحفون بقيادة الأتراك الغربيين، وليس هنالك أي إشارة لوجود خاقان للخزر، أو بيك.

وختاماً نلاحظ أنه بينما نرى أن لقب يبغو يمكن إرجاعه إلى هونغ ـ نو Hung-nu (الهون) نجده أيضاً عند الآفار ـ فضلاً عن الأتراك الغربيين والأمم التركية الأخرى[4] قلما هو مستعمل لدى الخزر، هذا وإن الروايات العربية المتواترة التي تذكر تفاصيل الحروب التي جرت مع الخزر، لا تذكر شيئاً يشير إلى وجود هذا اللقب، والمصدر الوحيد الذي يذكر اليبغو بين الخزر هو مقطع ذكره المؤرخ الفارسي ميرخوند (القرن الخامس عشر) حيث قال في معرض الحديث عن ظهور السلاجقة: «ملك الخزر

---

(1) انظر شافانس، الوثاق: 225، رقم 3.

(2) شافانس: 38، رقم 5.

(3) مرقوارت: 498. شافانس، الوثائق: 82.

(4) بليوت، أصل «تاو ـ كيو» «توانغ باو» 1915: 688 رقم 5. زكي وليدي ابن فضلان: 140.

المسمى بيغو»[1] (تصحيف يبغو) وهذا لا قيمة له، فميرخوند لا يعد عمدة في هذا الباب، وفي رواية أخرى أقدم للقصة نفسها تقاق زعيم الغُزّ - وهو واحد من أجداد السلاجقة - يتشاجر مع يبغو ملك الترك[2]، ولاشك أن هذا كان رئيسه وسيده أي يبغو الغُزّ[3].

وهناك نقطة أخرى ذكرها الكاتب الأرمني سيبوز أشار فيها إلى استقبال خاقان الأراضي الشمالية، ومعه قائده الملقب بلقب تشسيبتوخ (أي يبغو كما هو واضح) شنستان (بلاد الصين) لبعض الأرمن الذين مروا فيما بعد بدربند في طريقهم لمساعدة هرقل[4]، ويبدو أن هذه الرواية جاءت كإشارة غامضة لحوادث عام 627م. ففي عبارة «شنستان تشيبتوخ» نرى الشكل الأصلي نفسه الذي رأيناه في سنيجبو، حيث يبدو لنا أن المؤرخ سيبوز قد فسر الجزء الأول من الاسم بـ «سن» أي «الصين»، وهذا التفسير طريف في حد ذاته، لأنه يقدم لنا إيضاحاً لبعض النقاط المذكورة في كتاب «دربندنامه» حول خاقان التشين (خاقان الصين) الذي يقال أنه ساعد الخزر في حروبهم ضد المسلمين في حوالي عام 32هـ/ 652م[5] لكن عدا عن هذين النصين ليس لدينا دليل حول وجود أي حاكم تركي باسم «سنيجبو» بعد القرن السادس، وأما حول ذكر الاسم فيما بعد، فسببه مفارقات تاريخية.

وفي محاولة لتلخيص نتائج هذا الفصل، يمكننا القول: إنه من استعراض الأدلة المتوفرة يثبت إنه ليس لدينا أي أثر ثابت فيه دليل على وجود الخزر قبل القرن السادس، إذ

---

(1) اقتباس فون ستاكلبيرغ: W. Z. K. M.: 17/ 58.

(2) ابن الأثير: 9/ 162. حوادث سنة 432.

(3) انظر ما يلي الفصل التاسع.

(4) باتكنين، المصدر نفسه: 168. انظر أيضاً شافانس، الوثائق: 255 رقم 3.

(5) تحقيق قاسم بك، وأعلن قاسم بك (المصدر نفسه: 501) إنه تبعاً للطبري قام الخزر بعد حوالي عشرين سنة بغزو أذربيجان، وطلبوا آنذاك مساعدة امبراطور الصين ضد العرب، وطبري قاسم بك عبارة عن نص تركي مأخوذ عن ترجمة البلعمي، والنص موضوع المسألة هو نص يشير إلى حملة الجراح (بعد أكثر من عشرين سنة تلت) انظر ما يلي الفصل الرابع.

أنهم لا يذكرون إلاّ في النصف الثاني من ذلك القرن ـ أي بشكل متداخل مع ظهور القوة التركية ـ فآنذاك نسمع عن الخزر دونما أي لبس، وفي النصف الأول من القرن السابع نرى أن الخزر لا يزالون تحت سيطرة الأتراك الغربيين، ونجدهم بعد ذلك لكن في القرن نفسه يتمتعون باستقلال كامل للعمل فضلاً عن التدبير كما سنرى، إنما يظل أمر ارتباط الخزر بالأتراك الغربيين غير واضح، لكن بالنظر لما طرح من الآراء، لا يشك في أن الارتباط كان موجوداً، مع أننا لا نستطيع تأكيد هذه العلاقة بثقة تامة من خلال الاكتزير مع الهون، أو الصلات وجدت بشكل ملموس مع الهياطلة.